العرب
الإثنين 2021/08/23
السنة 44 العدد 12157

حلقات مسلسل نهب الآثار العراقية لا تنتهي

القطع النفيسة المستردة لا تعني توقف السرقة والتهريب

نجح العراق في استرداد الآلاف من القطع الأثرية التي تم تهريبها منذ سنة 2003 إلى اليوم، لكن ذلك لا يعني أن حلقات النهب والسرقة انتهت، فمازالت عمليات التنقيب غير المشروع متواصلة من قبل عصابات في ظل غياب تطبيق القانون والمراقبة التي تحمي كنوز وهوية البلاد.

بغداد – لا يزال نزيف تهريب الآثار هادرا في العراق، رغم نجاح البلد الجريح في استرداد 17 ألف قطعة أثرية مؤخرا.

في التاسع والعشرين من يوليو الماضي حطت طائرة رئيس الوزراء العراقي مصطفى الكاظمي في مطار بغداد قادمة من الولايات المتحدة، وعلى متنها 17 ألف قطعة أثرية عراقية مستردة من واشنطن.

وقالت السلطات العراقية آنذاك إن الآثار المستردة بينها قطعة أثرية يعود تاريخها إلى 4 آلاف عام، وجرى تهريبها خارج البلاد في خضم الفوضى الأمنية التي رافقت احتلال الولايات المتحدة للعراق عام 2003.

واعتبر وزير الثقافة حسن ناظم، في مؤتمر بمطار بغداد آنذاك، أن استعادة القطع الأثرية "أكبر عملية استرداد لآثار العراق".

وتغيب الأرقام الرسمية عن رصد نزيف الآثار العراقية المهربة خارج البلاد، لاسيما في ظل حالة الفوضى الأمنية واستمرار العصابات في عمليات التنقيب غير المشروع عن الآثار.

ويقول المتحدث باسم وزارة الثقافة أحمد العلياوي "العراق استعاد الآلاف من القطع الأثرية منذ عام 2003، ولا يزال يواصل العمل لاستعادة ما تبقى من الآثار المهربة".

ويضيف العلياوي "هناك تعاون مع الدول التي هربت إليها الآثار (لم يسمها) من أجل استعادتها خلال الفترة المقبلة".

ويوضح "العراق لا يملك إحصائية دقيقة بشأن عدد القطع الأثرية المهربة إلى الخارج، والتي كانت وراء معظمها عصابات التهريب.. القوات الأمنية تكشف تواجدها قرب المناطق الأثرية للحد من عمليات التنقيب غير المشروع".

> الأرقام الرسمية تغيب عن رصد نزيف الآثار المهربة في ظل حالة الفوضى الأمنية واستمرار العصابات في عمليات التنقيب

وعلى وقع الاحتلال الأميركي عام 2003، تعرضت الآثار العراقية إلى عملية نهب ممنهجة طالت المتاحف والمواقع الأثرية.

وفقد العراق أكثر من 15 ألف قطعة أثرية من متحف بغداد وحده، تعود إلى حضارات مختلفة بدءا من السومرية قبل 4 آلاف عام ومرورا بالبابلية والآشورية وصولا إلى الحضارة الإسلامية.

ومن بين القطع المفقودة التي وافقت الولايات المتحدة على إعادتها لوح أثري مصنوع من الطين مكتوب عليه باللغة المسمارية جزء من "ملحمة جلجامش" السومرية التي تُعد أحد أقدم الأعمال الأدبية للبشرية.

ويتهم محمد العبيدي أستاذ تاريخ الفن والآثار في الجامعة المستنصرية ببغداد (حكومية) "القوات الأميركية في عام 2003 بالاستيلاء على المئات من القطع الأثرية".

ويضيف العبيدي "هناك تنسيق رباعي بين وزارتي الثقافة والخارجية من جانب، ومنظمة اليونسكو والشرطة الدولية (الإنتربول) من جانب آخر لاستعادة جميع الآثار المهربة".

ويقول "الحروب التي تعرض لها العراق، فضلا عن الاقتتال الداخلي، جميعها عوامل أسفرت عن هشاشة الوضع الأمني الذي سمح بعمليات التهريب المكثفة".

وبيّن العبيدي أن تنظيم "داعش" عند سيطرته على المحافظات العراقية في عام 2014 أقدم على تهريب آثار تصل قيمتها إلى الملايين من الدولارات.

ويوضح أن "القانون الدولي يلزم الدول بإعادة الآثار المسروقة إلى بلدانها الأصلية خلال مدة أقصاها 3 سنوات من تاريخ رفع دعوى قضائية بهذا الشأن".

ورغم ذلك لا تزال أمام العراق مهمة شاقة لتعقب آثاره في المزادات والأسواق السوداء وخوض العشرات من النزاعات القضائية لاستردادها، لكن بغداد تعول على تفاهمات مع حكومات البلدان التي هربت إليها القطع الأثرية.

ويقول عضو لجنة الثقافة بمجلس النواب بشار الكيكي إن "العراق اتفق مع العديد من الدول من أجل استعادة الآلاف من القطع الأثرية خلال الأشهر القليلة المقبلة".

ويضيف "وزارة الخارجية فاتحت جميع البلدان حول العالم من أجل إبلاغها باحتمال وجود قطع أثرية تعود ملكيتها إلى العراق على أراضيها".

ويوضح "العاصمة بغداد ومدينة الموصل بمحافظة نينوى (شمال)، أكثر المدن التي شهدت تهريبا للآثار خلال السنوات الماضية".

وكشف تقرير استقصائي حديث فقدان نينوى 90 في المئة من معالمها الأثرية، فيما أشار إلى أن المحافظة تدمرت باشتراك داعش و"الميليشيات" ومؤسسات حكومية.

وبحسب التقرير الذي أعده نوزت شمدين وفريق نينوى الاستقصائي، فإن المحافظة لم تستفد طوال قرون من آثار ممالكها العظيمة التي لا تقدر بثمن، والتي كانت يمكن أن تشكل قبلة للسياح.

هوية العراق تاريخه

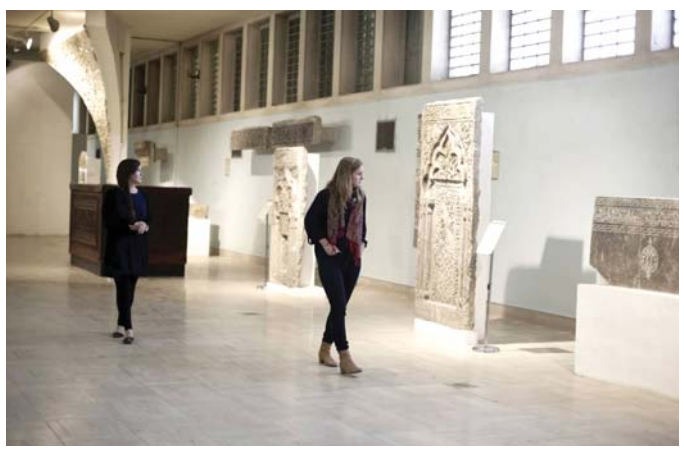

متحف الحضارات المتعاقبة

وحطم داعش تماثيل ومجسمات أثرية في متحف الموصل بمحافظة نينوى (شمال)، كما نهب القطع النفيسة من المتحف وهربها إلى الخارج.

وجرف التنظيم الإرهابي مواقع أثرية مهمة، بينها مدينة النمرود (30 كلم جنوب الموصل) والتي يعود تاريخها إلى القرن الثالث عشر قبل الميلاد، وتعد أحد أهم المواقع الأثرية في العراق والشرق الأوسط.

و"النمرود" هي التسمية المحلية بالعربية لمدينة كالخو (كالح) الآشورية التي بنيت على نهر دجلة على يد الملك الآشوري شلمنصر الأول، وكانت عاصمة الحكم خلال الإمبراطورية الآشورية الوسيطة.

واستغلت عصابات الجريمة المنظمة هشاشة الأمن خلال العقدين الماضيين لنهب الآثار من المتاحف والتنقيب عنها في المواقع الأثرية التي لا تحظى بحماية كافية.

وسادت الفوضى في البلاد عقب الاحتلال الأميركي عام 2003، عقب حل المؤسسات الأمنية والجيش، قبل أن تدخل البلاد حربا طائفية بين عامي 2006 و2008 في ظل هجمات متواصلة شنها تنظيم "القاعدة" على القوات الأميركية.

وكان أسوأ انهيار أمني في العراق عندما اجتاح تنظيم "داعش" شمالي وغربي البلاد عام 2014، وسيطرته على ثلث مساحة البلاد حتى عام 2017.

ورغم إعلان العراق تحقيق النصر على "داعش" باستعادة كامل أراضيه، إلا أن التنظيم لا يزال يحتفظ بخلايا نائمة في مناطق واسعة بالعراق ويشن هجمات بين فترات متباينة.

ترميم الزاوية الأسمرية في ليبيا والعودة إلى دورها التعليمي

زليتن (ليبيا) – تعود الحياة تدريجيا إلى الزاوية الأسمرية، أهمّ مزار صوفي في ليبيا، على الرغم من جدرانها المدمّرة ومئذنتها المليئة بالثقوب الناجمة عن الرصاص والصدمة التي لا يزال يشعر بها روادها من آثار هجوم إسلاميين متشددين على المكان.

تجلس مجموعة من التلامذة بشكل دائري وينسخون على ألواح خشبية آيات قرآنية يمليها عليهم أستاذهم. وفي قاعة مجاورة في المدرسة القرآنية، يتفحّص آخرون مخطوطات قديمة حول الشريعة أو الفقه الإسلامي موضوعة على رفوف مكتبة.

ويقف جميعهم عندما يعلو صوت الأذان الداعي إلى الصلاة، فيتوجهون إلى الجامع الواقع في المكان نفسه، ويمرون لذلك عبر فناء كبير تحيط به أقواس خزفية مزينة.

أسّس الزاوية عالم الفقه الصوفي عبدالسلام الأسمر في القرن السادس عشر. ويضمّ الموقع أيضا جامعة ومدرسة داخلية وضريح مؤسسه. ويشير الباحث والمؤرخ في الموقع فتحي الزرخاني إلى أن الزاوية التي تقع في مدينة زليتن على بعد 160 كلم شرق العاصمة طرابلس، هي بالنسبة إلى ليبيا بمثابة جامعة الأزهر لمصر أو القرويين للمغرب أو مسجد الزيتونة في تونس، المواقع الإسلامية العريقة في شمال أفريقيا.

ويعتبر الموقع الجغرافي لليبيا مهمّا للصوفية، التيار الروحاني في الإسلام المناقض للتيّار السلفي الذي يعتبر كثيرا من ممارسات الصوفية بدعة والتبرّك بالأولياء شركا بالله.

وكان لموقع ليبيا على الطريق بين المغرب ومصر أن أصبحت محلا للتأثيرات الصوفية المختلفة فظهرت بها الطرق العيسوية والعروسية والأسمرية والخليلية وغيرها .

لكن على الرغم من التاريخ الطويل للصوفية في شمال أفريقيا، أفسح انزلاق ليبيا إلى الفوضى بعد إطاحة معمر القذافي من السلطة في ثورة 2011، المجال أمام تنامي نفوذ ميليشيات يكنّ بعضها عداء عميقا للمتصوفين الذين يصفونهم بـ"الزنادقة".

وهدمت صوامع وخربت مساجد ونبشت قبور، وكل ذلك تحت سمع وبصر السلطة الدينية في ليبيا ممثلة في دار الإفتاء، وأمام أعين اللجان الأمنية المشتركة التي أدارها القيادي في جماعة الإخوان المسلمين عبدالرزاق العرادي، وقبل هذا أمام المجلس الانتقالي بقيادة مصطفى عبدالجليل وحكومتها المتعاقبة، ثم المؤتمر الوطني العام بقيادة رئيس الجبهة الوطنية لإنقاذ ليبيا محمد المقريف والحكومات التي انبثقت عنه.

ويقول الزرخاني إنه بعد انتفاضة 2011 "استغلت التيارات الأيديولوجية التي كانت نائمة وتغذيها جهات في الخارج، الفراغ الأمني لمهاجمة الزوايا".

وفي أغسطس 2012 فجّر العشرات من الإسلاميين المسلحين جزءا من الزاوية وتم تدنيس قبر مؤسسها ونهب قطع من مكتبتها العلمية أو حرقها، وفق ما يؤكد الزرخاني.

ويضيف أنه تمت أيضا "سرقة وثائق ومخطوطات موجودة منذ العشرات من السنين".

وأغلقت بعد ذلك الزاوية لفترة طويلة، وفرّ القيمون عليها.

ودُمّرت أضرحة صوفية أخرى في ليبيا بمجارف وآلات لتفتيت الصخور. ولم يقتصر الأمر على ليبيا، فمن العراق إلى مصر مرورا بباكستان، شكلت مواقع صوفية أهدافا لهجمات جهاديين متطرفين في السنوات الأخيرة.

> الزاوية بالنسبة إلى ليبيا من المواقع الإسلامية العريقة في شمال أفريقيا فهي بمثابة جامعة الأزهر أو القرويين أو مسجد الزيتونة

وشهد تاريخ الزاوية سلسلة من الاضطرابات على مدى عقود. فقد حارب القذافي أتباع الصوفية في أماكن تجمعهم و"اخترق الزاوية بوضع أجهزته السرية هناك وخلق جوا من الخوف وانعدام الثقة"، كما يقول مسؤول في المكان طلب عدم كشف هويته.

ويضيف "القذافي اختار تقسيم الصوفيين من أجل السيطرة عليهم بشكل أفضل"، وتم إغلاق جامعة الإمام محمد بن علي السنوسي في مدينة البيضاء وكل المعاهد التابعة لها في عموم ليبيا ليتم دور التصوف في البلاد علميا ودعويا.

كما تم الاعتداء على قبر شيخ الطريقة السنوسية الإمام محمد بن علي السنوسي ونقل جثمانه الشريف إلى مكان مجهول، وهدم مسجد ومقام الشيخ سيدي حمودة الذي كان من أعتق مساجد طرابلس وغير هذا كثير.

ويؤكّد الزرخاني "سيطرة النظام القديم منذ 1986 قبل أن يخفف قبضته في منتصف تسعينات القرن الماضي، ما سمح للزوايا باستعادة استقلاليتها"، بحثا عن حلول مستعجلة غير مدروسة لمحاربة التطرف الديني.

ولم يكن النظام السابق يسعى إلى السماح بوجود الفكر الإسلامي المتنور بقدر ما كان يسعى لحماية نظامه.

وتجري اليوم أعمال ترميم في زاوية زليتن. وتحيط سقالة بقبر مؤسسها المغطى بنسيج حريري مذهب وباللون الأخضر. وينشغل الحرفيون في ترميم قطع البلاط وإعادة بناء الأجزاء المدمرة.

وفي المكتبة يغطي الغبار المخطوطات القديمة. ويقول الزرخاني "لا نملك الوسائل ولا الخبرة لترميمها. نحن بحاجة إلى مساعدة من منظمة الأمم المتحدة للتربية والثقافة والعلوم (اليونسكو) والمؤسسات الأوروبية".

وأعادت الزاوية فتح أبوابها في 2018 بأكبر قدر من التحفظ، وبدأ الصوفيون يخرجون تدريجيا من الظل، كما حدث في أكتوبر الماضي في طرابلس عندما احتفلوا في شوارع المدينة بذكرى المولد النبوي.

ولم يلاحق مرتكبو هجمات زليتن إطلاقا. يقول الزرخاني "إنهم متطرفون معروفون من الدولة".

ويقول مسؤول آخر في الزاوية اضطر للفرار من المكان والعيش متخفيا في طرابلس لمدة ستة أشهر، إنهم "سلفيون ووهابيون كانوا يتقاضون رواتب من وزارتي الداخلية والدفاع".

ويتابع "لكن مشروعهم فشل".

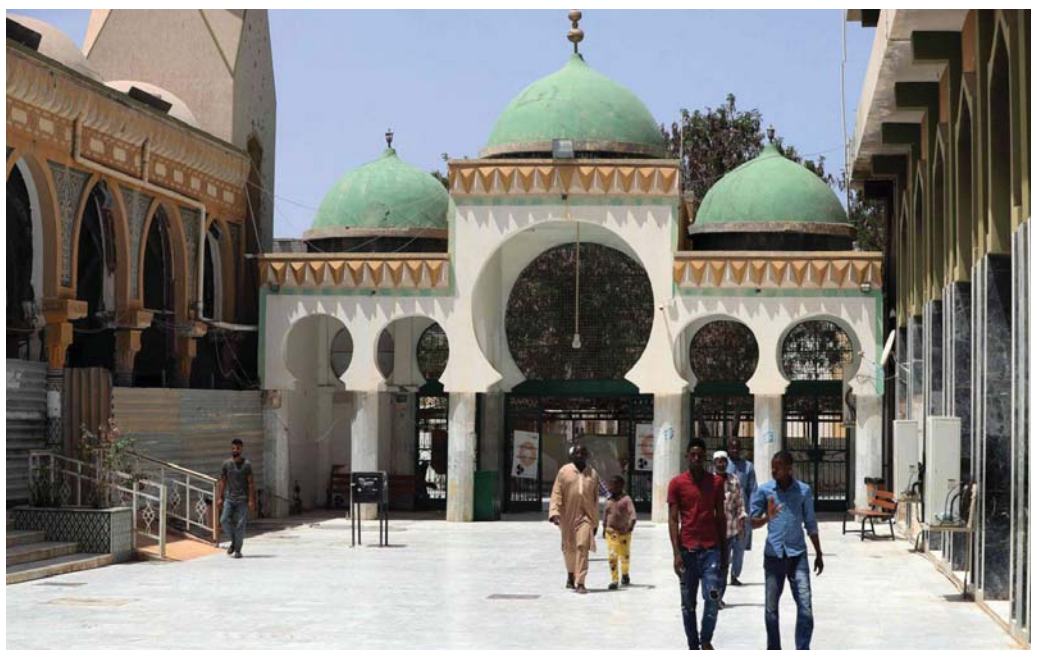

إحدى منارات شمال أفريقيا